مسائل البلاغة في التّحرير والتّنوير للطاهر بن عاشور(ت:1973م) وصفوة التّفاسير للصّابوني(ت:2021م) -سورة المدّثر أنموذجا-

Issues of Rhetoric in Liberation and Enlightenment by Al-Taher Ibn Ashour (d.: 1973 AD) and Safwat al-Tafseer by Al-Sabouni (d.: 2021 AD) - - Surah Al-Muddathir as a model

سمية غول[1]*

المركز الجامعي مرسلي عبد الله –تيبازة (الجزائر)- ghoul.soumia@cu-tipaza.dz

أمينة فريك[2]

المركز الجامعي مرسلي عبد الله –تيبازة (الجزائر)- frik.amina@cu-tipaza.dz

تاريخ الارسال2022/12/20 تاريخ القبول 2023/01/14 تاريخ النشر2023/02/07

ملخص:

لقد ظلت الدّراسات القرآنية تولي العناية التّامة للبلاغة في التّراث العربي، فعملت على تتبّع أسرار البلاغة في كتب التفاسير والإلمام بما يُميِّز به الخطاب الفني عن بقية مستويات الخطاب، من أجل بيان إعجاز القرآن وإبراز معالمه الفنية، وكان لكتب التّفسير الدور البالغ في استلهام وجوه البلاغة وإبراز لطائفها ودقائقها المتعددة، ومن ذلك ما فعله الطاهر بن عاشور في التّحرير والتّنوير، وما رصده الصّابوني في صفوة التّفاسير.

وقد جاءت هذه الورقة البحثية لإبراز دور علم التّفسير في إرساء معالم البلاغة، وكذا الكشف عن المنهج البلاغي في التّحرير والتّنوير وصفوة التّفاسير متّخذين من سورة المدثر نموذجا تمثيليا تحليليا.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الصّابوني، صفوة التّفاسير، سورة المدثر.

Abstract:

Qur'anic studies have been paying close attention to rhetoric in the Arab heritage, so it worked on tracing the secrets of rhetoric in the books of interpretation and familiarity with what distinguishes artistic discourse from the rest of the discourse levels, in order to demonstrate the miracle of the Qur'an and highlight its artistic features. Its subtleties and its many subtleties, including what Al-Tahir bin Ashour did in Al-Tahrir and Al-Tanweer, and what Al-Saboni observed in the elite of the interpretations.

This research paper came to highlight the role of the science of interpretation in establishing the parameters of rhetoric, as well as to reveal the rhetorical method in liberation, enlightenment and the elite of interpretations, taking from Surat Al-Muddathir an analytical and representative model.

Keywords: Al-Balagha, Al-Taher bin Ashour, Al-Tahrir and Al-Tanweer, Al-Sabouni, Safwat Al-Tafseer, Surat Al-Muddathir.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

يمثل التفسير القرآني التي تشهده البشرية منذ انطلاق التفكير حول ماهية الكلام الإلهي ومحاولة اكتشاف معانيه، الحصيلة المعرفية لأحوال القرآن للوصول إلى مقاصد الله تعالى والعمل بها مع ما يتطابق بمقاصد الشريعة وهي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وعلى إثر هذا اجتهد العلماء بمحاولاتهم الجادّة في الوصول إلى الدّلالات الضمنية لألفاظ القرآن المعجزة إلى تحقيق مرامي الخالق والتطلع إلى أغراض الكلام الإلهي، فتميّز كل عالم منهم بنظرته التجديدية التي تفرّد بها عن غيره ممّن سبقوه. وحاولوا الاشتغال على الجوانب البلاغية للقرآن الكريم أمثال ابن عاشور والصّابوني. فكيف قام كل من ابن عاشور والصابوني بدراسة ألوان البلاغة في سورة المدثر؟

1. البلاغة:

تعدّ البلاغة أحد أهم العلوم اللّغوية التّي تهتم بالجماليات الخطابية، واللّطائف البيانية، وقد لقيت عناية فائقة من لدن جباهذة العرب القدامى لما تشغله من أهمية بالغة في نسج الكلام وسبكه في أحسن صور الكلام وأفانينه، ويعرفها أبو هلال العسكري (ت:395هـ) بقوله: " البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السّامع فتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وإنّما جعلنا حسن المعرض وقبول الصّورة شرطا في البلاغة لأنّ الكلام إذا كانت عباراته رثّة ومعرضه خلقا لم يسمّ بليغا، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى".[1]

فيظهر أنّ البلاغة هي تصوير المعاني في أجمل ضروب الكلام، وهي صياغة وتأليف الكلام بأرقى الألفاظ لأحسن المعاني.

ومن زاوية أخرى "البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبها، والحال هو الأمر الذّي يحمل المتكلم على أن يورد كلامه في صورة خاصّة"[2]؛ أي أن يتناسب ويتلاءم الكلام مع الظروف المصاحبة له علاوة على رونقة الألفاظ، وحسن رصف وسبك التّراكيب.

وتتكئ البلاغة على جملة من النّواميس التّي لابد من اتّباعها عند تأليف الكلام حتّى يتسمّ بالإفهام والإقناع والإمتاع والتّأثير في النّفوس والقلوب، وهذه القوانين والنّواميس صارت علما قائما بذاته ينحدر إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع.[3]

فيتضح أنّ الكلام حتّى يصير بليغا وجب قيامه على أسس وضوابط تجعل منه لوحة مزخرفة بأجمل العبارات الفصيحة الرّصينة، وبأفضل الصّياغات البديعة.

3.الظواهر البلاغية في التحرير والتنوير:

لقد كان حضور استعمال اللغة عند ابن عاشور مهم لدرجة كبيرة في الوصول إلى مقاصد الآيات القرآنية وعدم الوقوع في اللبس أو الخلط، فلم يكتف ابن عاشور في تفسيره وفهم معاني القرآن "بمعنى اللفظ المعجمي أو المقابل له، وإنّما كان السياق عوناً أساسيا في كشف دلالات اللّفظ القرآني"[4] ، فكان يقوم بتحديد المعاني الشرعية

للألفاظ القرآنية وتفعيل معناها انطلاقا من اللغة بما تحمله من قواعد وأسس تُساعده في بيان المعاني وإيضاحها بما يتناسب مع المقام والسياق التي ذُكرت فيه الملفوظات المعجزة.

ويرى ابن عاشور ملاك وجوه الإعجاز في القرآن الكريم في حصول كيفيات في نظم الكلام الفصيح، وما أبدعه القرآن من أفانين التّصرف في نظم الكلام، وما أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العلمية والعقلية[5]. وممّا قدّمه من تلك الوجوه البلاغية التي جاءت مسترسلة بعناية وبما تحمله من ألوان الخطاب المعجز

4.المعالم البلاغية لسورة المدثر في التحرير والتّنوير:

1.4 التقديم والتأخير: لقد جاءت الصياغة القرآنية للتقديم والتأخير في جمل القرآن بشكل واضح ، وقد اعتبره ابن عاشور من بين أهم مسائل البلاغة ، قال الله تعالى:{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِ}.[6] ولتقديم "ربّك" على "اصبر" للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجعل بعضهم اللّام في "لربّك" لام التعليل؛ أي اصبر على أذاهم لأجله، وفي التعبير أنّ الله بوصف "ربّك" إيماء إلى أن هذا الصّبر برّ بالمولى وطاعة له.[7]

2.4 الاستفهام: قال الله تعالى{كَيْفَ قُدِّرَ}[8] وهو اسم استفهام دالّ على الحالة التي يبينها متعلّق "كيف". والاستفهام مُوجه إلى سامع غير معين يستفهم المتكلم سامعه استفهاما عن حالة تقديره، وهو استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالإنكار على وجه المجاز المرسل.[9] وقوله أيضا:{مَاذَا أَرَادَ اللهُ}[10] استفهام إنكاري فإن "ما" استفهامية، و"ذا" أصله اسم إشارة فإذا وقع بعد "ما" أو"من" الاستفهاميتين أفاد معنى الذي.[11]

3.4 النهي: لقد كان لحضور النهي جزء تناسب كبير مع مقاصد الآيات القرآنية قد احتل مساحة واسعة في سورة المدثر، قال الله تعالى:{وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ}[12]وقد كان النهي عن أخلاق أهل الشرك يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها، وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة.[13]

4.4 القسم: ورد في قوله تعالى:{كَلاَ وَالقَمَرِ والّيْلِ إِذَ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}[14]، ومناسبة القسم بالقمر وبالليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر: أنّ هذه الثلاثة تظهر بها أنوار في خلال الظلام فناسبت حالي الهدي والضلال، ومن قوله:{وَمَا هِيَ إلاّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} [15]ففي هذا القسم تلويح إلى تمثيل الفريقين من النّاس عند نزول القرآن بحال اختراق النّور في الظلمة.[16]

5.4 الاستئناف: قوله تعالى:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً}[17] استئناف يؤذن بأن حدثا كان سببا لنزول هذه الآية عقب الآيات التي قبلها.[18] في قوله تعالى:{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}[19]، هو استئناف بياني للسامع عقبى الاختيار؛ أي كل إنسان رهن بما كسب من التقدّم أو التأخر أو غير ذلك فهو على نفسه بصيرة ما يفضي به إلى النعيم أو إلى الجحيم.[20]

6.4الاعتراض: قال تعالى:{وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}[21] وردت معترضة في آخر الكلام لإفادة تعلمهم بهذه الحقيقة، والواو اعتراضية.[22]

5.الظواهر البلاغية في صفوة التّفاسير:

مما لاريب فيه أنّ صفوة التّفاسير أحد أهم التّفاسير في العصر الحديث التّي حاولت الوقوف على معاني القرآن الكريم وشرح عباراته، وتحليل مفرداته، وفق طريقة بسيطة مفهومة.

وقد اتّبع الصّابوني منهجا رصينا في عرض مادته قائما على جملة من النقاط الرّئيسية هي:[23]

-بين يدي السورة: وهو عرض لمواضيع السّورة، وبيان أغراضها الأساسية.

-المناسبة بين الآيات السّابقة والآيات اللاحقة: وهو بيان لمدى ترابط وانسجام الآيات مع بعضها.

-اللغة: رصد لأصل المفردات القرآنية من المعاجم العربية.

-سبب النزول: ذكر الظروف والملابسات الخارجية المصاحبة لنزول السّورة الكريمة.

-التّفسير: تحديد معاني الآيات.

-البلاغة: إبراز جماليات النّص القرآني، وبيان مكانزه البيانية البديعية.

-الفوائد واللّطائف: إيراد لطائف وأسرار رونقة النّص القرآني.

يتبين أنّ صفوة التّفاسير تفسير حديث يتسمّ بالوضوح والسّلاسة، وجامع لجملة من العلوم اللغوية والقرآنية التّي تعين على فهم نفائس النّص القرآني، وبيان مقاصده وأغراضه.

وقد أفرد الصّابوني حيزا خاصاً للبلاغة في تفسيره، وبين معالمها ووجوها في شتّى سور القرآنية، حيث حدد في كلّ سورة اللّمسات البيانية، واللّفتات البديعية، وضروب علم المعاني التّي تضمنتها، كما أنّ البلاغة كانت مبحا مستقلا عن المباحث الأخرى، ويظهر منهجه البلاغي أكثر في النّقاط التّالية:[24]

-ذكر وجوه البلاغة بعد تفسير الآيات، وأحيانا بعد تفسير السّورة ككل.

-استنباط الجماليات البلاغية بحسب ترتيب الآيات، مع مراعاة الجمع بين فنون البلاغة الثلاثة.

-التّباين في عرض الفنون البلاغية عند كل سورة.

-يحدد القسم البلاغي الذّي ينتمي إليه المثال المستنبط، مع شرحه وتحليله.

-طغيان علم البديع على العلوم البلاغية الأخرى.

-إبراز كل ما له علاقة بالبلاغة من أغراض وفوائد ولطائف.

وبذلك يكون صفوة التّفاسير تفسير بلاغي بالدّرجة الأولى لما تضمّنه من مباحث ومسائل بلاغية متنوعة، ثمّ إنّه لم يترك وجه من وجوه البلاغة إلاّ وذكره، وبما أنّ النّص القرآني أبلغ وأفصح الكلام طغت المسائل البلاغية في التّفسير على نظيراتها من علوم اللّغة.

6.المعالم البلاغية لسورة المدّثر في صفوة التّفاسير:

حدد الصّابوني جملة من اللّطائف البلاغية، ووجوها من النّفائس البيانية في سورة المدثر نوردها في النّقاط التّالية:[25]

1.6الطّباق: ظهر الطّباق في مواضع كثيرة من السّورة الكريمة وذلك بين لفظتي عسير ويسير، وكذلك بين يهدي ويضّل، ويتقدّم ويتأخر، والطّباق هو من مباحث علم البديع الذّي يحسن به الكلام ويتّضح.

2.6المقابلة: برزت المقابلة مرة واحدة بين الليل والصبح، والإدبار والإسفار، وذلك لتقوية المهنى.

3.6 الإطناب: وذلك بتكرار الجملة {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَر*ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ }[26]

4.6الجناس: تضمنت السورة جناس اشتقاق بين نقر و النّاقور، وهو ظاهر في قوله تعالى: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ}[27]

5.6التّقديم والتّأخير: ظهر تقديم المفعول به على الفعل في السّورة الكريمة، وذلك في قوله تعالى: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ*وَثِيَابَكَ فَطَهِرْ*والرّجْزَ فاهْجُرِ}[28]

6.6 الاستفهام: احتوت سورة المدثر على أساليب استفهامية عديدة تتصل بالمعنى العام للسّورة، ولها علاقة وطيدة بالدّلالة بل أنّها جاءت لذات الغرض ومن ذلك قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}[29] ؛فهنا دلّ الاستفهام على التّقريع والتّوبيخ.

7.6التشبيه: في قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ *فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} [30] ؛ فهذا تشبيه تمثيلي كون وجه الشّبه منتزع من متعدد، وأضفى هذا التّشبيه تأكيد المعنى وتقويته.

8.6السّجع: قد تجلى مع الآيات الوسطى في السّورة المباركة مع حرف الرّاء الذّي تكرر مع الفواصل القرآنية، ممّا يفضي رونقا جماليا بديعا مع نهاية الآيات.

يمكن القول بأنّ الصّبوني قد وفق إلى حد ما في بيان فنون البلاغة في سورة المدثر، وذلك واضح في ذكره لمعالمها الفنية المختلفة، مع التّمثيل والشّرح بأسلوب ماتع رصين بديع.

7.الخاتمة: توصل البحث إلى جملة من النتائج هي:

-النّص القرآني مصدر انبعاث جلّ العلوم اللّغوية وفي طليعة هذه العلوم البلاغة العربية.

-سلك الصّابوني منهجا واضحا بيّناً في عرضه لمسائل البلاغة، متكئا على سابقيه، متفردا بمنهجيته.

-يقوم منهج الطاهر بن عاشور في إبرازه لوجوه البلاغة على التّكامل والجمع بين ضروب العلوم اللّغوية حتّى تظهر ككتلة متّراصّة وهو منهج العرب القدامى نفسه في طرحهم للقضايا اللّغوية.

-سورة المدثر من أعظم السّور القرآنية التّي ضمّت فنونا بلاغية متعددة دلّت على إعجاز النّص القرآني.

8. الهوامش:

[1]أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد الجباوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط1، 1971، ص16.

[2]يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص48.

[3]ينظر، عبد الملك بومنجل، تأصيل البلاغة بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية، مخبر المثاقفة في الأدب والنّقد، الجزائر، سطيف، د.ط، د.ت، ص10.

[4] نبيل أحمد صقر،منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير"التحرير والتنوير"،الدار المصرية للنشر والتوزيع،ط1، 2001م،ص37.

[5] ينظر،المرجع نفسه:ص192.

[6]سورة المدثر، الآية7.

[7] محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير،دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،مج 12، ،د.ط. د.ت،ص300.

[8]سورة المدثر، الآية20.

[9] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص309.

[10]سورة المدثر، الآية31.

[11]محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،31.

[12]سورة المدثر،الآية6.

[13]محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص298-299.

[14]سورة المدثر، الأية32، 33، 34.

[15]سورة المدثر، الآية31.

[16] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص322.

[17]سورة المدثر، الآية11.

[18] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص302.

[19]سورة المدثر، الآية37.

[20] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص324.

[21]سورة المدثر، الآية56.

[22] محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير، ص332.

[23]ينظر، محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار الضّياء، الجزائر، ط5، 1990، ج1، ص20.

[24]ينظر، علي زواوي أحمد، قراءة في المنهج البلاغي للصابوني من خلال صفوة التفاسير، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، عد8،2015، ص

[25]ينظر، محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، ص481، 482.

[26]سورة المدثر، الآية19، 20.

[27]سورة المدثر، الآية8.

[28]سورة المدثر، الآية 3،4،5.

[29]سورة المدثر، الآية49.

[30]سورة المدثر، الآية 50، 51.

9. قائمة المراجع:

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- عبد الملك بومنجل، تأصيل البلاغة بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية، مخبر المثاقفة في الأدب والنّقد، الجزائر، سطيف، د.ط، د.ت.

2- محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير،دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،مج 12، ،د.ط. د.ت.

3- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار الضّياء، الجزائر، ط5، 1990، ج1.

4- نبيل أحمد صقر،منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير"التحرير والتنوير"،الدار المصرية للنشر والتوزيع،ط1، 2001م.

5- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد الجباوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط1، 1971.

6- يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2007.

7- علي زواوي أحمد، قراءة في المنهج البلاغي للصابوني من خلال صفوة التفاسير، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، عد8،2015.